كثيرة عميقة يتضوأ بعينين سوداوين يطفح فيهما الذعر والكآبة جميعاً»[٥١]، وبتلك الصفة التي ينعتها النقاد بصفة «الماهية»[٥٢]، ونقصد بها تلك الندبة العميقة التي تعلو حاجب «بيلاجيا» الأيمن، و«تجر الجفن إلى الأعالي، موحية بأن أذنها اليمنى ترتفع أيضاً عن مستوى الأذن اليسرى»[٥٣]. وقد أشار غوركي إلى هذه الصفة في كثير من المرات.

وإذا كان غوركي قد نجح في رسم الأبعاد الجسمية لشخصياته، فإنه أخفق إلى حد ما في رسم أبعادها النفسية والفكرية. وذلك عائد إلى أن كل الشخصيات تكاد تكون متشابهة، ما دامت تصدر عن إيمان بفكرة واحدة تحركها؛ إن كل «الرفاق» يتحولون إلى خلية ثورية واعية، تحمل الأفكار ذاتها، وتردد الأقوال نفسها، وتحترق بالانفعال ذاته. وإذا اعتقل «بافل» أو «نيقولاي» أو «ريبين» فإن المؤمنين بالفكرة «يتضاعفون كالسمك في النهر»[٥٤]، ومن هنا فإنه يمكن القول بأن البطل في «الأم» ليس «بيلاجيا» أو «بافل» فحسب، ولكنه جماعة متكتلة، تشترك في نفس الملامح الثورية. وهذا النوع من البطولة نجده عند سائر الواقعيين الاشتراكيين الذين لم يكونوا ليركزوا جهودهم على شخصية واحدة، ويعدوا بقية الشخصيات ثانوية يقتصر دورها على إلقاء الأضواء على الشخصية الرئيسية.

وهذه البطولة الجماعية نجد لها شبيهاً عند «تولستوي»، وخاصة في روايته «الحرب والسلم» التي نجد فيها عدة شخصيات بارزة يصعب علينا ترشيح شخصية واحدة منها للبطولة. والسؤال الذي يمكن أن يطرح هنا هو ما إذا كان غوركي وغيره من كتاب الواقعية الاشتراكية قد تأثروا بتولستوي في نزعته نحو البطولة الجماعية أو الشمولية أم لا؟.. إننا نعتقد بأن الواقعيين الاشتراكيين لم يرثوا هذه النزعة عن تولستوي، ونرجح أن يكون ميلهم إلى البطولة الجماعية ناتجاً عن رفضهم لما يسمونه «بالأدب البورجوازي»، وعن إيمانهم بالأيديولوجية الماركسية التي تصب اهتمامها على الجماعة وليس على الفرد. وإذن فلا غرابة أن نرى بعض النقاد الماركسيين يؤكدون «أن تصوير